



رسالة

فَضْلُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَحَقُوقُهُمْ

لشيخ الإسلام
ابن تيمية
رحمه الله

تعليق

أبي رزق الظاهري
عفا الله عنه

دار القبلة للثقافة الإسلامية

المملكة العربية السعودية — جدة : ص. ب ٩٣٦٧ — الرياض : ص. ب ١٤٣٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رسالة
فَضْلُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَحَقُّهُمْ

لشيخ الإسلام
ابن تيمية
رحمه الله

تعليق
أبي عبد الله الزاهد
عفا الله عنه

بسم الله حامداً ومصلياً

قال أبو تراب :

هذه رسالة ، نادرة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وجدتها في كُنَاشَتِي ، وهي على صغر حجمها جليلة القدر ، لَمَلَمْتُ بين ثناياها أطراف موضوعها من جميع الجوانب ، كعادة ابن تيمية إذا تكلم في مسألة فهو بحر مَوَاجٍ يَنْعُدُّ عليك الوصول إلى ساحِلِهِ .

ومحتوى الرسالة كما أنبأ عنه عنوائها — بيان مذهب السلف في شعبةٍ من شعب الإيمان — التي تتعلق بأعمال القلب وهي حُبُّ أهل بيت النبوة كما دلَّ عليه القرآن والحديث ، وقد أوضح ذلك في هذه الرسالة أتمَّ إيضاح ، وكلامه عن ذلك في الفتاوى الكبرى (ج ٣ ص ١٥٤) وهو في العقيدة الواسطية ما نصُّه :

« ومن أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون أهل بيت رسول الله ﷺ ويتولّونهم ، ويحفظون فيهم وصية رسول

حقوق الطبع محفوظة للدار
الطبعة الأولى
١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م

الله ﷺ، حيث قال يوم غدیر حُمّ: (أذكر كم الله في أهل بيتي) وقال للعباس عمّه — وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يحفرو بني هاشم —: (والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرايتي) وقال ﷺ: (إن الله اصطفى بني إسماعيل، واصطفى من بني إسماعيل كنانة، واصطفى من كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم)»

وقال في الفتاوى (ج ٣ ص ٤٠٧) وهو في الوصية الكبرى (ص ٢٩٧) ما نصه: «آل بيت رسول الله ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها، فإن الله جعل لهم حقا في الخمس والفيء، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ فقال لنا: (قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد) وآل محمد هم الذين حرمت عليهم الصدقة هكذا قال الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما من العلماء رحمهم الله، فإن النبي ﷺ قال: (إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد) وقد قال الله في كتابه: (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) وحرم الله عليهم الصدقة لأنها أوساخ الناس. وفي المسانيد والسنن أن النبي ﷺ قال للعباس: — لما شكأ إليه جفوة قوم

لهم — (والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم من أجلي) وفي الصحيح أنه قال: (إن الله اصطفى.... الحديث المذكور).

وأورد شيخ الإسلام ابن تيمية في درجات اليقين (ص ١٤٩) قوله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني لحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي».

وقال ابن تيمية في اقتضاء الصراط (ص ٧٣) الحجة قائمة بالحديث. وقال في (ص ٨٩) وانظر إلى عمر بن الخطاب حين وضع الديوان فبدأ بأهل بيت رسول الله ﷺ.

ونقل العلامة السيد حامد المحضار في الجزء الذي جمع فيه أقوال الشيخين ابن تيمية وابن القيم (ص ٢٣) قول شيخ الإسلام في رسالة «رأس الحسين» عقب حديث: (والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم لله ولقرايتي: فإذا كانوا أفضل الخلق فلا ريب أن أعمالهم أفضل الأعمال).

هذا والأحاديث في فضائل أهل البيت النبوي مستفيضة في المسانيد والمعاجم والسنن والمصنفات، وفيها الضعيف والموضوع مع الصحيح، وقد ميز بينها نقاد المحدثين، ومعظمها في جامع المسانيد لابن كثير والجامع الكبير للسيوطي وكنز العمال

للمتقى ، ونقد بعضها ابن كثير في تفسيره (ج ٣ ص ٤٨٣)
وللمحب الطبري في ذلك تأليف مفرد سماه : ذخائر العقبي في
مناقب ذوى القربى ، وانظر شرف بيت النبوة في جلاء الأفهام
لابن القيم (ص ١٧٧) ولغلاة الشيعة فيها تأليف مفردة فيها
من المنكر شيء كثير ، وحسبنا ما صحت به الرواية ، وجاء به
الحديث الثابت ، قال ابن كثير (ج ٤ ص ١١٣) :

« ولا ننكر الوصاة بأهل البيت ، والأمر بالإحسان إليهم
وإحترامهم وإكرامهم فإنهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وُجد
على وجه الأرض فخراً وحسباً ونسباً ، ولا سيما إذا كانوا متبعين
للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة كما كان عليه سلفهم
كالعباس وبنيه ، وعلى وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين » .

وفي صحيح البخارى : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه :
ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته ، وقال لعلى رضى الله عنهما :
والله لقراءة رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي ، وقال
عمر بن الخطاب رضى الله عنه للعباس رضى الله عنه : والله
لإسلامك يوم أسلمت كان أحبَّ إلي من إسلام الخطاب
لو أسلم ، لأن إسلامك كان أحبَّ إلي رسول الله ﷺ من إسلام
الخطاب .

وفي صحيح مسلم عن زيد بن أرقم رضى الله عنه أنه ﷺ
خطب فقال : « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي »
ورواه الإمام أحمد والنسائي والترمذى وفي رواية : « كتاب
الله وعترتي وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض فأنظروا كيف
تخلفوني فيهما » .

وروى ذلك أيضاً أبو ذر وأبو سعيد وجابر وحذيفة بن أسيد
رضى الله عنهم وأورده ابن تيمية في الفرقان ص ١٦٣ وفي لفظ
مسلم : أذكركم الله في أهل بيتي .

قال الطيبي كما في تحفة الأحوذى (ج ٤ ص ٣٤٣) : لعل السرَّ
في هذه التوصية واقتران العترة بالقران أن إيجاب محبتهم لائح من
معنى قوله تعالى : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في
القربى ﴾ فإنه تعالى جعل شكر إنعامه وإحسانه بالقران منوطاً
بمحبتهم على سبيل الحصر فكأنه ﷺ يوصى الأمة بقيام الشكر ،
وقيّد تلك النعمة به ، ويحذرهم عن الكفران ، فمن أقام
بالوصية ، وشكر تلك الصنيعة بحسن الخلافة فيهما لن يفترقا ،
فلا يفارقانه في مواطن القيامة ومشاهدتها حتى يردا الحوض ،
فشكر صنيعة عند رسول الله ﷺ حيثئذ هو بنفسه يكافئه ،
والله تعالى يجازيه الجزاء الأوفى ، فمن أضاع الوصية وكفر النعمة

فحكمه على العكس ، وعلى هذا التأويل حسن موقع قوله :
« فانظروا كيف تخلفوني فيهما » أى تأملوا وتفكروا واستعملوا
الرؤية فى استخلاص أيام هل تكونون خلف صدق أو خلف
سوء » .

هذا وفى الرسالة فوائد يحرص أهل العلم على اقتناصها
كمسألة اعطاء آل البيت من الزكوات .

وكمسألة تخصيص أصحاب الكساء من عموم أهل البيت
الذين نزلت فيهم الآية المذكورة فى الأحزاب » ﴿ إنما يريد
الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ وهم ذوو
قرباه وأزواجه اللاتي سيقن الآيات فيهن وفى مخاطبتن وتنظير
ذلك بالمسجد الذى أسس على التقوى ، وهو مسجد قباء وعلى
الأخص مسجد النبى ﷺ .

وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً فى تفسير المعوذتين
وقال : فالتخصيص لكون المخصوص أولى بالوصف .

وكمسألة سيادة الحسن دون الحسين رضى الله عنهما وتنظير
ذلك بإسحاق وإسماعيل عليهما السلام إلى غير ذلك مما تجده
فيها .

وعملى فى هذه الرسالة هو تحرير النص من شوائب التصحيف
والتعليق عليه بما تيسر وتخرج الأحاديث الواردة فيها ، ثم ذيلتها
بضميمة ملحقة منفردة جمعت فيها أحاديث فضائل أهل البيت
من الصحيحين والأربعة ، والمستدرک والمسنند ، والجامع الكبير ،
وكنز العمال للمتقى وغيرها وبالله التوفيق .

فى ٢٧ شهر رمضان المبارك ١٤٠٤ هـ

وكتب
أبو تراب الظاهرى
عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام العالم العامل فريد عصره ، مفتى الفرق ،
شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ الإمام العالم
شهاب الدين عبد الحلیم بن الشيخ الإمام العلامة مجد الدين
عبد السلام بن تيمية رضى الله عنه وأرضاه ، وأعلى درجته :

هذا الكتاب إلى من يصل إليه من الإخوان المؤمنين الذين
يتولون الله ورسوله والذين آمنوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم
راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم
الغالبون . الذين يحبون الله ورسوله ، ومن أحبه الله ورسوله ،
ويعرفون من حق المتصلين برسول الله ما شرعه الله ورسوله ، فإن من
محبة الله وطاعته محبة رسوله وطاعته ، ومن محبة رسوله وطاعته محبة
من أحبه الرسول وطاعة من أمر الرسول بطاعته ، كما قال
تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر
منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله
واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ .

وقال النبي ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن عصى أميري فقد عصاني »^(١) . وقال ﷺ فيما رواه عنه أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه : « إنما الطاعة في المعروف »^(٢) . وقال : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »^(٣) .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فإننا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شيء قدير ، ونصلي على إمام المتقين ، وخاتم النبيين محمد عبده ورسوله ، ﷺ تسليماً كثيراً . أما بعد :

فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالكتاب والحكمة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . وقال الله تعالى : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ وقال لأزواج نبيه : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ .

والذي كان يتلوه هو رسول الله ﷺ في بيوت أزواجه : كتاب الله والحكمة . فكتاب الله هو القرآن والحكمة هي ما كان يذكره من كلامه ، وهي سنته . فعلى المسلمين أن يتعلموا هذا وهذا .

وفي الحديث المشهور الذي رواه الترمذي وغيره عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « ستكون فتنة . قلت : فما المخرج يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسن ، ولا يحلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ،

(١) قال أبو تراب : رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة .

(٢) قال أبو تراب : هذه قطعة حديث أخرجه البخاري ومسلم ، ونصه عند البخاري . بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا ، فأغضبوه إلى شيء ، فقال : اجمعوا لي حطباً فجمعوا له ثم قال : أوقدوا ناراً فأوقدوا ثم قال : ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا ؟ قالوا : بلى ، قال : فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا : إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار ، فكانوا كذلك . وسكن غضبه وطفئت النار فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : لو دخلوها ما خرجوا منها إنما الطاعة في المعروف ..

(٣) قال أبو تراب : عزاه الهيثمي بهذا اللفظ إلى معجم الطبراني ورواه أحمد والحاكم والطيالسي عن عمران بن حصين والحكم الغفاري وعبد الله بن الصامت وله مخرج أخر (المجمع ج ٥ ص ٢٢٦) .

ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

وقال الله تعالى في كتابه : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ وقال في كتابه : ﴿ إن الذين تفرقوا وكانوا شيعة لست منهم في شيء ﴾ . فذم الذين تفرقوا فصاروا أحزابا وشيعة ، وحمد الذين اتفقوا وصاروا جميعاً معتصمين بحبل الله الذي هو كتابه شيعة واحدة للأنبياء كما قال تعالى : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ وإبراهيم أبو الأنبياء ، كما قال : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ : وقال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾ إلى أن قال : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ .

وكان النبي ﷺ يعلم أمته أن يقولوا إذا أصبحوا : « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين » (١) . وقال النبي ﷺ : « ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ، فلا ألفين رجلا شبعان

على أريكته يقول : بيننا وبينكم هذا القرآن ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه » (١) .

فهذا الحديث موافق لكتاب الله ، فإن الله ذكر في كتابه أنه [ﷺ] يتلو الكتاب والحكمة ، وهي التي أوتيتها مع الكتاب ، وقد أمر في كتابه بالاعتصام بحبله جميعا ، ونهى عن التفرق والاختلاف ، و [أمر] أن نكون شيعة واحدة ، لا شيعة متفرقين ، وقال الله تعالى في كتابه : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين . إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ فجعل المؤمنين إخوة ، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل مع وجود الاقتتال والبغى .

وقال النبي ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد

(١) قال أبو تراب : رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم عن أبي رافع ، وأخرجه أحمد وأبو داود عن المقدم بن معد يكرب أيضاً .

(١) قال أبو تراب : أخرجه أحمد والطبراني والنسائي عن عبد الرحمن بن ابري .

بالحمى والسهر»^(١) وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »^(٢) وشبك بين أصابعه .

فهذه أصول الإسلام التي هي الكتاب والحكمة ، والاعتصام بحبل الله جميعاً [واجب] على أهل الإيمان للاستمسك بها .

ولا ريب أن الله قد أوجب فيها من حرمة خلفائه وأهل بيته والسابقين الأولين ، والتابعين لهم بإحسان ما أوجب . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا . وَإِن كُنْتُمْ تَرْضَوْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمَحْسَنَاتِ مَنَاسِكَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وقد روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أم سلمة : أن هذه الآية لما نزلت أدار النبي ﷺ كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » . وسنته تفسر كتاب الله وتبينه ، وتدل عليه ، وتعبر عنه . فلما قال : « هؤلاء أهل بيتي » مع أن سياق القرآن يدل على أن الخطاب مع أزواجه ، علمنا أن

(١) قال أبو تراب : رواه الإمام أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير .

(٢) قال أبو تراب : أخرجه البخاري ومسلم ، عن أبي موسى .

أزواجه وإن كن من أهل بيته كما دل عليه القرآن ، فهؤلاء أحق بأن يكونوا أهل بيته ، لأن صلة النسب أقوى من صلة الصهر ، والعرب تطلق هذا البيان للاختصاص بالكمال لا للاختصاص بأصل الحكم ، كقول النبي ﷺ : ليس المسكين بالطواف الذي رده اللقمة واللقمتان ، والتمررة والتمرتان ، وإنما المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يتفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس الخافاً .

بين بذلك : أن هذا مختص بكمال المسكنة ، بخلاف الطواف فإنه لا تكمل فيه المسكنة ، لوجود من يعطيه أحياناً ، مع أنه مسكين أيضاً . ويقال : هذا هو العالم ، وهذا هو العدو ، وهذا هو المسلم ، لمن كمل فيه ذلك وإن شاركه غيره في ذلك وكان دونه .

ونظير هذا [في] الحديث ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : « مسجدى هذا » يعنى مسجد المدينة . مع أن سياق القرآن في قوله عن مسجد الضرار : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ يقتضى أنه مسجد قباء . فإنه قد تواتر أنه قال لأهل قباء : « ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم به ؟ » فقالوا . لأننا نستنجي بالماء لكن مسجده أحق بأن يكون مؤسساً

على التقوى من مسجد قباء ، وإن كان كل منهما مؤسساً على التقوى ، وهو أحق أن يقوم فيه من مسجد الضرار ، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم : أنه كان يأتي قباء كل سبت راكباً و ماشياً ، فكان يقوم في مسجده القيام الجامع يوم الجمعة ، ثم يقوم بقباء يوم السبت ، وفي كل منهما قد قام في المسجد المؤسس على التقوى .

ولما بين سبحانه أنه يريد أن يذهب الرجس عن أهل بيته ويطهرهم تطهيراً ، دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأقرب أهل بيته وأعظمهم اختصاصاً به ، وهم : علي ، وفاطمة ، رضي الله عنهما ، وسيدا شباب أهل الجنة ، جمع الله لهم بين أن قضى لهم بالتطهير ، وبين أن قضى لهم بكمال دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان في ذلك مادلاًنا على أن إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم نعمة من الله ليسبغها عليهم ، ورحمة من الله وفضل لم يبلغوها بمجرد حولهم وقوتهم ، إذ لو كان كذلك لاستغنوا بهما عن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ، كما يظن من يظن أنه قد استغنى في هدايته وطاعته عن إعانة الله تعالى له ، وهدايته إياه .

وقد ثبت أيضاً بالنقل الصحيح : أن هذه الآيات لما نزلت قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أزواجه ، وخيرهن كما أمره الله ، فأخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ولذلك أقرهن ، ولم يطلقهن ، حتى مات عنهن . ولو أردن الحياة الدنيا وزينتها لكان يتمتعن

ويسرهن كما أمره الله سبحانه وتعالى ، فإنه صلى الله عليه وسلم أحشى الأمة لربه وأعلمهم بحدوده .

ولأجل ما دلت عليه هذه الآيات من مضاعفة للأجور والوزر بلغنا عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين وقرة عين الإسلام أنه قال : « إني لأرجو أن يعطى الله للمحسن منا أجرين ، وأخاف أن يجعل على المسيء منا وزرين » .

وثبت في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير يدعى « خم » بين مكة والمدينة فقال : « وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » . قيل لزيد بن أرقم : ومن أهل بيته ؟ قال : الذين حرموا الصدقة : آل علي ، وآل جعفر ، وآل عقيل ، وآل عباس . قيل أزيد : أكل هؤلاء أهل بيته ؟ قال : نعم ^(١) .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه صحاح أن الله لما أنزل عليه : ﴿ إنا لله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ . سأل الصحابة : كيف يصلون عليه ، فقال : « قولوا : اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ،

(١) قال أبو تراب : ورواه الإمام أحمد أيضاً والنسائي والترمذي .

وبارك على محمد ، كما باركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد » . وفي حديث صحيح : « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته » .

وثبت عنه أن ابنه الحسن لما تناول ثمرة من تمر الصدقة قال : [له] : كخ ، كخ ، أما علمت أنا آل بيت لا تحل لنا الصدقة ^(١) وقال : إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا آل محمد ^(٢) .

وهذا والله أعلم من التطهير الذي شرعه الله لهم ، فإن الصدقة أوساخ الناس ، فطهرهم الله من الأوساخ ، وعوضهم بما يقبضون من خمس الغنائم ، ومن الفئء الذي جعل منه رزق محمد حيث قال ﷺ فيما رواه أحمد وغيره : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة ، حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

ولهذا ينبغي أن يكون اهتمامهم بكفاية أهل البيت الذين حرمت عليهم الصدقة أكثر من اهتمامهم بكفاية الآخرين من الصدقة ، لاسيما إذا تعذر أخذهم من الخمس والفئء ، إما لقلة

ذلك ، وإما لظلم من يستولى على حقوقهم ، فيمنعهم إياها من ولادة الظلم ، فيعطون من الصدقة المفروضة ما يكفيهم إذا لم تحصل نفائهم من الخمس والفئء ^(١) .

وعلى الآخذين من الفئء من ذوى القربى وغيرهم أن يتصفوا بما وصف الله به أهل الفئء في كتابه حيث قال : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ الآيات .

فجعل أهل الفئء ثلاثة أصناف : المهاجرين ، والأنصار ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم .

وذلك أن الفئء إنما حصل بجهاد المهاجرين والأنصار وإيمانهم وهجرتهم ونصرتهم ، فالتأخرون إنما يتناولونه مخلقا عن أولئك ، مشبها بتناول الوارث ميراث أبيه ، فإن لم يكن مواليا له لم يستحق الميراث ، فلا يرث المسلم الكافر ، فمن لم يستغفر لأولئك بل كان مبغضا لهم خرج عن الوصف الذي وصف الله به أهل

(١) قال أبو تراب : وقال بذلك أبو سعيد الأصبغى قال الرافعى : وكان محمد بن يحيى صاحب الغزالي يفتى بهذا . انظر شرح المذهب للنووى ج ٦ ص ٢٢٧ .

(١) قال أبو تراب : رواه الشيخان عن أنس هريرة

(٢) قال أبو تراب : رواه الإمام أحمد ومسلم عن عبد المطلب بن ربيعة

ﷺ فقال : يا رسول الله والله ليدخلن حاطب النار ، وكان ماعط يسىء إلى ممالكه . فقال النبي ﷺ : « كذبت ، إنه قد شهد بدرا والحديبية » . وقال ﷺ : « لا يدخل النار واحد بايع تحت الشجرة » (١) .

فهذا حاطب قد تجسس على رسول الله ﷺ في غزوة فتح مكة التي كان ﷺ يكتمها عن عدوه ، وكتمها عن أصحابه ، وهذا من الذنوب الشديدة جداً ، وكان يسىء إلى ممالكه ، وفي الحديث المرفوع ، « لن يدخل الجنة سىء الملكة » (٢) . ثم مع هذا لما شهد بدرا والحديبية غفر الله له ورضى عنه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات . فكيف بالذين هم أفضل من حاطب وأعظم إيماناً وعلماً وهجرة وجهاداً ، فلم يذنب أحد قريبا من ذنوبه ؟!

ثم إن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه روى هذا الحديث في خلافته ، ورواه عنه كاتبه عبيد الله بن أبي رافع ، وأخبر فيه أنه هو والزبير ذهباً لطلب الكتاب من المرأة الطعينة ، وأن النبي ﷺ شهد لأهل بدر بما شهد ، مع علم أمير المؤمنين بما جرى ، ليكف

الفىء ، حتى يكون قلبه مسلماً لهم ، ولسانه داعياً لهم ، ولو فرض أنه صدر من واحد منهم ذنب محقق فإن الله يغفره له بحسناته العظيمة ، أو بتوبة تصدر منه ، أو يتليه ببلاء يكفر به سيئاته ، أو يقبل فيه شفاعة نبيه وإخوانه المؤمنين ، أو يدعو الله بدعاء يستجيبه له .

وقد ثبت عن النبي ﷺ في الصحاح من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن حاطب بن أبي بلتعة كاتب كفار مكة لما أراد النبي ﷺ أن يغزوهم غزوة الفتح ، فبعث إليهم امرأة معها كتاب يخبرهم فيه بذلك ، فجاء الوحي إلى النبي ﷺ بذلك ، فبعث علياً والزبير فأحضرا الكتاب ، فقال : « ما هذا يا حاطب » ؟ فقال : والله يا رسول الله ما فعلت ذلك أذى ولا كفراً ، ولكن كنت أمراً ملصقاً من قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من أصحابك لهم قرابات يحمون بها أهلهم ، فأردت أن أتخذ عندهم يداً أحمى بها قرابتي ، فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال : « إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال : أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . وأنزل الله تعالى في ذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ الآيات .

وثبت في صحيح مسلم أن غلام حاطب هذا جاء إلى النبي

(١) قال أبو تراب : رواه أحمد وأبو داود والترمذى عن جابر ومسلم عن أم بشر

(٢) قال أبو تراب : أخرجه الترمذى وابن ماجه عن أبى بكر

البحرهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه [كانوا] فيما
اروا فيه مجتهدين طالبين للحق .

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من يعيش منكم بعدى
... من اختلاف كثيراً ، فعليكم بستی سنة الخلفاء الراشدين
المهاجرين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات
الأمر ، فإن كل بدعة ضلالة » . وروى عنه موله سفينة أنه
قال : « الخلافة ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكاً »^(١) ، فكان آخر
الثلاثين حين سلم سبط رسول الله ﷺ : الحسن بن علي رضى
الله عنهما الأمر إلى معاوية . وكان معاوية أول الملوك ، وفيه ملك
ورحمة ، كما روى في الحديث : « ستكون خلافة نبوة ، ثم يكون
ملك ورحمة ، ثم يكون ملك وجبرية ، ثم يكون ملك
مضوض » .

وقد ثبت عن أمير المؤمنين علي رضى الله عنه من وجوه أنه
لما قاتل أهل الجمل لم يسب لهم ذرية ، ولم يغنم لهم مالا ،
ولا أجهز على جريح ، ولا اتبع مدبراً ، ولا قتل أسيراً ، وأنه صلى
على قتلى الطائفتين بالجمل وصفين ، وقال : « اخواننا بغوا
علينا » . وأخبر أنهم ليسوا بكفار ولا منافقين ، واتبع فيما قاله

(١) قال أبو تراب : رواه أحمد والترمذى ، وأبو يعلى وابن حبان

القلوب والألسنة عن أن تتكلم فيهم إلا بالحسنى ، فلم يأت أحد
منهم بأشد مما جاء به حاطب ، بل كانوا في غالب ما يأتون به
مجتهدين ، وقد قال النبي ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله
أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » وهذا حديث صحيح
مشهور .

وثبت عنه أيضاً أنه لما كان في غزوة الأحزاب فرد الله
الأحزاب بغیظهم لم ينالوا خيراً ، وأمر نبيه بقصد بنى قريظة قال
لأصحابه : « لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بنى قريظة »
فأدركتهم الصلاة في الطريق ، فمنهم قوم قالوا : لا نصليها إلا في
بنى قريظة ، ومنهم قوم قالوا : لم يرد منا تفويت الصلاة ، إنما أراد
المسارعة ، فصلوا في الطريق . فلم يعنف النبي ﷺ واحدة من
الطائفتين .

وكانت سنة رسول الله ﷺ هذه موافقة لما ذكره الله
سبحانه وتعالى في كتابه حيث قال : ﴿ وداود وسليمان إذ
يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم
شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً ﴾ فأخبر
سبحانه وتعالى أنه خص أحد النبيين بفهم الحكم في تلك القضية ،
وأثنى على كل منهما بما آتاه من العلم والحكم .

فهكذا السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين

كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فإن الله سماهم إخوة ، وجعلهم مؤمنين في الاقتتال والبغى كما ذكر في قوله : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ .

وثبت عن النبي ﷺ في الصحاح أنه قال : « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين ، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق »^(١) . وهذه المارقة هم أهل حروراء ، الذين قتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأصحابه لما مرقوا من الإسلام ، وخرجوا عليه ، فكفروه ، وكفروا سائر المسلمين ، واستحلوا دماءهم وأموالهم .

وقد ثبت عن النبي ﷺ من طرق متواترة أنه وصفهم وأمر بقتالهم ، فقال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقرآنه مع قرآنهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لو يعلم الذين يقتلونهم ما لهم على لسان محمد ﷺ لنكلوا عن العمل » . فقتلهم علي رضي الله عنه وأصحابه ، وسر أمير المؤمنين بقتلهم سرورا شديداً وسجد لله شكراً ، لما ظهر فيهم علامتهم وهو الخدج اليد ، الذي على يده مثل البضعة من اللحم ، عليها شعرات

(١) قال أبو تراب : أخرجه مسلم وأبو داود عن أبي سعيد .

فاتفق جميع الصحابة على استحلال قتالهم ، وندم كثير منهم أن عمر وغيره على ألا يكونوا شهدوا قتالهم مع أمير المؤمنين ، خلافاً لما جرى في وقعة الجمل وصفين ، فإن أمير المؤمنين كان موحداً لذلك القتال ، متشكياً مما جرى ، يتراجع هو وابنه الحسن القول فيه ، ويذكر له الحسن أن رأيه ألا يفعله .

فلا يستوى ما سر قلب أمير المؤمنين وأصحابه وغبطه به من لم يشهده ، مع ما تواتر عن النبي ﷺ فيه وساءه وساء قلب أفضل أهل بيته ، حب النبي ﷺ ، الذي قال فيه : « اللهم إني أحبه فأحبه ، وأحب من يحبه » . وإن كان أمير المؤمنين هو أولى بالحق ممن قاتله في جميع حروبه .

ولا يستوى القتل الذي صلى عليهم وسماهم إخواننا ، والقتل الذي لم يصل عليهم ، بل قيل له : من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ فقال : هم أهل حروراء .

فهذا الفرق بين أهل حروراء وبين غيرهم الذي سماه أمير المؤمنين في خلافته بقوله وفعله موافقا فيه لكتاب الله وسنة نبيه هو الصواب الذي لا معدل عنه لمن هدى رشده ، وإن كان كثير من علماء السلف والخلف لا يهتدون لهذا الفرقان ، بل يجعلون السيرة في الجميع واحدة . فإما أن يقصروا بالخوارج عما

يستحقونه من البغض واللعنة والعقوبة والقتل ، وإما أن يزيدوا على غيرهم ما يستحقونه من ذلك .

وسبب ذلك قلة العلم والفهم لكتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، وسيرة خلفائه الراشدين المهديين ، وإلا فمن استهدى الله واستعان به ، وبحث عن ذلك ، وطلب الصحيح من المنقول ، وتدبر كتاب الله ، وسنة نبيه ، وسنة خلفائه ، لا سيما سيرة أمير المؤمنين الهادي المهدي التي جرى فيها ما اشتبه على خلق كثير فضلوا بسبب ذلك ، إما غلوا فيه ، وإما جفاء عنه ، كما روى عنه قال : « يهلك في رجلان : محب غال يقرظني بما ليس في ، ومبغض قال يرميني بما نزهني الله منه » .

وحد ذلك وملاك ذلك شيئان : طلب الهدى ، ومجانبة الهوى ، حتى لا يكون الإنسان ضالاً وغاوياً ، بل مهتدياً راشداً . قال الله تعالى في حق نبيه ﷺ : ﴿ والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى ﴾ . فوصفه بأنه ليس بضال « أى ليس بجاهل » ولا غاو « أى ولا ظالم » فإن صلاح العبد في أن يعلم الحق ويعمل به ، فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه . ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاو ، ومن علمه وعمل به كان من أولى الأيدي عملاً ، ومن أولى الأبصار علماً ، وهو الصراط المستقيم الذي أمرنا الله

بمجانته في كل صلاة أن نقول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

فالمغضوب عليهم : الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه اليهود ، والضالون : الذين يعملون أعمال القلوب والجوارح بلا علم كالنصارى . ولهذا وصف الله اليهود بالغواية في قوله تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ .

ووصف العالم الذي لم يعلم بعلمه بذلك في قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فخان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ . ووصف النصارى بالضلال في قوله تعالى : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا من سواء السبيل ﴾ .

ووصف بذلك من يتبع هواه بغير علم حيث قال : ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ . وقال : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ .

وأخبر من اتبع هداه المنزل فإنه لا يضل كما ضل الضالون ،

ولا يشقى كما شقى المفضوب عليهم فقال : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ . قال ابن عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة . ومن تمام الهداية : أن ينظر المستهدى فى كتاب الله ، وفيما تواتر من سنة نبيه ، وسنة الخلفاء ، وما نقله الثقات الأثبات ، ويميز بين ذلك وبين ما نقله من لا يحفظ الحديث ، أو يتهم فيه بكذب لغرض من الأغراض ، فإن المحدث بالباطل إما أن يتعمد الكذب ، أو يكذب خطأ لسوء حفظه أو نسيانه ، أو لقلة فهمه وضبطه .

ثم إذا حصلت [للمستهدى] المعرفة بذلك تدبر ذلك ، وجمع بين المتفق منه ، وتدبر المختلف منه ، حتى يتبين له أنه متفق فى الحقيقة وإن كان الظاهر مختلفا ، أو أن بعضه راجح يجب اتباعه ، والآخر مرجوح ليس بدليل فى الحقيقة ، وإن كان فى الظاهر دليلا .

أما غلط الناس فلعدم التمييز بين ما يعقل من النصوص والآثار ، أو يعقل بمجرد القياس والاعتبار ، ثم إذا خالط الظن والغلط فى العلم هوى النفوس ومناها فى العمل صار لصاحبها نصيب من قوله تعالى . ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ .

وهذا سبب ما خلق الإنسان عليه من الجهل فى نوع العلم ،

والظلم فى نوع العمل ، فجهله يتبع الظن ، وبظلمه يتبع ما تهوى الأنفس . ولما بعث الله رسله وأنزل كتبه ، لهدى الناس وإرشادهم ، صار أشدهم اتباعا للرسل أبعدهم عن ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

ولهذا صار ما وصف الله به الإنسان لا يخص غير المسلمين منهم ، ولا يخص طائفة من الأمة ، لكن غير المسلمين أصابهم ذلك فى أصول الإيمان التى صار جهلهم وظلمهم فيها كفرانا وخسرانا . ولذلك من ابتدع فى أصول الدين بدعة جليلة أصابه من ذلك أشد مما يصيب من أخطأ فى أمر دقيق أو أذنب فيه ، والنفوس لهجة بمعرفة محاسنها ، ومساوئ غيرها .

وأما العالم العادل فلا يقول إلا الحق ، ولا يتبع إلا إياه ، ولهذا من يتبع المنقول الثابت عن النبي ﷺ ، وخلفائه ، وأصحابه ، وأئمة أهل بيته ، مثل الإمام علي بن الحسين زين العابدين ، وابنه الإمام أبى جعفر محمد بن علي الباقر ، وابنه الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق شيخ علماء الأمة ، ومثل أنس

ابن مالك ، والثورى وطبقتهما ، وجد ذلك جميعه متفقا مجتمعا في أصول دينهم ، وجماع شرائعهم ، ووجد في ذلك ما يشغله وما يغنيه عما أحدثه كثير من المتأخرين من أنواع المقالات التي تخالف ما كان عليه أولئك السلف [وهؤلاء المتأخرون] ممن ينتصب لعداوة آل بيت رسول الله ﷺ ، ويبخسهم حقوقهم ، ويؤذيهم ، أو ممن يغلو فيهم غير الحق ، ويفترى عليهم الكذب ، ويبخس السابقين والطائعين حقوقهم ، ورأى أن في المأثور عن أولئك السلف في باب التوحيد والصفات ، وباب العدل والقدر ، وباب الإيمان والأسماء والأحكام ، وباب الوعيد والثواب ، والعذاب ، وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يتصل به من حكم الأمراء أبرارهم وفجارهم ، وحكم الرعية معهم ، والكلام في الصحابة والقراة ما يبين لكل عاقل عادل أن السلف المذكورين لم يكن بينهم من النزاع في هذه الأبواب إلا من جنس النزاع الذى أقرهم عليه الكتاب والسنة كما تقدم ذكره ، وإن البدع الغليظة المخالفة للكتاب والسنة ، واتفاق أولى الأمر الهداة المهتدين إنما حدثت من الأخلاف ، وقد يعزون بعض ذلك إلى بعض الأسلاف ، تارة بنقل غير ثابت ، وتارة بتأويل لشيء من كلامهم متشابه .

ثم إن من رحمة الله انه قل أن ينقل عنهم شيء من ذلك إلا وفي النقول الصحيحة الثابتة عنهم للقول المحكم الصريح ما يبين غلط

الغالطين عليهم في النقل أو التأويل ، وهذا لأن الصراط المستقيم هو الأمة بمنزلة الصراط في الملك ، فكمال الإسلام هو الوسط الأديان والملك ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ لم ينحرفوا انحراف اليهود والنصارى والصابئين .

فكذلك أهل الاستقامة ، ولزوم سنة رسول الله ﷺ ، وما عليه السلف ، تمسكوا بالوسط ، ولم ينحرفوا إلى الأطراف ، فاليهود مثلا جفوا في الأنبياء والصديقين حتى قتلوهم وكذبوهم ، قال الله تعالى : ﴿ فريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴾ والنصارى خلوا فيهم حتى عبدوهم كما قال تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ الآية ..

واليهود انحرفوا في النسخ حتى زعموا أنه لا يقع من الله ولا يجوز عليه ، كما ذكر الله عنهم انكاره في القرآن حيث قال : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ والنصارى قابلوهم ، فجوزوا للقسيسين والرهبان أن يوجبوا ما شاءوا ، ويحرموا ما شاءوا ، وكذلك تقابلهم في سائر الأمور .

فهدى الله المؤمنين إلى الوسط ، فأعتقدوا في الأنبياء ما يستحقونه ، ووقروهم ، وعزروهم ، وأحبوهم ، وأطاعوهم ، واتبعوهم ، ولم يردوهم كما فعلت اليهود ، ولا أطروهم ولا غلوا

فيهم فنزلوهم منزلة الربوبية كما فعلت النصارى . وكذلك في النسخ ، جوزوا أن ينسخ الله ، ولم يجوزوا لغيره أن ينسخ ، فإن الله له الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره .

وهكذا أهل الاستقامة في الإسلام المعتصمون بالحكمة النبوية ، والعصبة الجماعية ، متوسطون في باب التوحيد والصفات بين النفاة المعطلة وبين المشبهة الممثلة ، وفي باب القدر والعدل والأفعال بين القدرية والجبرية والقدرية والجوسية ، وفي باب الأسماء والأحكام بين من أخرج أهل المعاصي من الإيمان بالكلية كالخوارج وأهل المنزلة ، وبين من جعل إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والصديقين كالمرجئة والجهمية ، وفي باب الوعيد والثواب والعقاب بين الوعيدين الذين لا يقولون بشفاعة نبينا لأهل الكبائر ، وبين المرجئة الذين لا يقولون بنفوذ الوعيد . وفي باب الإمامة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الذين يوافقون الولاية على الإثم والعدوان ، ويركنون إلى الذين ظلموا ، وبين الذين لا يرون أن يعاونوا أحدا على البر والتقوى ، لا على جهاد ولا جمعة ولا أعياد إلا أن يكون معصوماً ، ولا يدخلوا فيما أمر الله به ورسوله إلا في طاعة من لا وجود له .

فالأولون يدخلون في المحرمات ، وهؤلاء يتركون واجبات الدين ، وشرائع الإسلام ، وغلاتهم يتركونها لأجل موافقة من يظنونهم ظالماً ، وقد يكون كاملاً في علمه وعدله .

وأهل الاستقامة والاعتدال يطيعون الله ورسوله بحسب الإمكان ، فيتقون الله ما استطاعوا ، وإذا أمرهم الرسول بأمر أتوا منه ما استطاعوا ، ولا يتركون ما أمروا به لفعل غيرهم ما نهى الله . بل كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يصركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ . ولا يعاونون أحدا على معصية ، ولا يزيلون المنكر بما هو انكر منه ، ولا يأمرون بالمعروف إلا بالمعروف ، فهم وسط في عامة الأمور ، ولهذا وصفهم النبي ﷺ بأنهم الطائفة الناجية لما ذكر اختلاف أمته والرافقهم .

ومن ذلك أن اليوم الذي هو يوم عاشوراء الذي أكرم الله فيه سبط نبيه ، وأحد سيدى شباب أهل الجنة بالشهادة على أيدي من قتله من الفجرة الأشرقياء ، وكان ذلك مصيبة عظيمة من أعظم المصائب الواقعة في الإسلام . وقد روى الإمام أحمد وغيره عن فاطمة بنت الحسين وقد كانت قد شهدت مصرع أبيها ، عن أبيها الحسين بن علي رضي الله عنهم ، عن جده رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من رجل يصاب بمصيبة فيذكر مصيبتة وإن قدمت ، لمحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب بها » .

فقد علم الله أن مثل هذه المصيبة العظيمة سيتجدد ذكرها مع تقادم العهد ، فكان من محاسن الإسلام أن روى هذا الحديث

صاحب المصيبة والمصائب به أولا ولا ريب أن ذلك إنما فعله الله كرامة للحسين رضي الله عنه ، ورفعاً لدرجته ومنزلته عند الله ، وتبليغا له منازل الشهداء ، وإحقاقا له بأهل بيته الذين ابتلوا بأصناف البلاء ، ولم يكن الحسن والحسين حصل لهما من الابتلاء ما حصل لجدتهما ولأمهما وعمهما ، لأنهما ولدا في عز الإسلام ، وتربيا في حجور المؤمنين ، فأتم الله نعمته عليهما بالشهادة ، أحدهما مسموما ، والآخر مقتولا ، لأن الله عنده من المنازل العالية في دار كرامته ما لا يناهها إلا أهل البلاء كما قال النبي ﷺ وقد سئل : أي الناس أشد بلاء ؟ فقال : « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه ، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة » (١) .

وشقى بقتله من أعان عليه ، أو رضى به ، فالذي شرعه الله للمؤمنين عند الإصابة بالمصائب وإن عظمت أن يقولوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . وقد روى الشافعي في مسنده أن النبي ﷺ لما مات وأصاب أهل بيته من المصيبة ما أصابهم ، سمعوا قائلا يقول : يا آل بيت رسول الله ، إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه

فارحوا ، فإن المصائب من حرم الثواب .. فكانوا يروونه الخضر هاء عزيمهم بالنبي ﷺ .

فأما اتخاذ المآتم في المصائب ، واتخاذ أوقاتها مآتم ، فليس من دين الإسلام ، وهو أمر لم يفعله رسول الله ﷺ ، ولا أحد من السابقين الأولين ، ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا من عادة أهل البيت ، ولا غيرهم ، وقد شهد مقتل على أهل بيته ، وشهد مقتل الحسين من شهدته من أهل بيته ، وقد مرت على ذلك سنون كثيرة ، وهم متمسكون بسنة رسول الله ﷺ ، لا يحدثون مائما ولا نياحة . بل يصبرون ويسترجعون كما أمر الله ورسوله ، أو يفعلون مالا بأس به من الحزن والبكاء عند قرب المصيبة ، قال النبي ﷺ : « ما كان من العين والقلب فمن الله ، وما كان من الهد واللسان فمن الشيطان » . وقال : « ليس منا من لطم الحدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » (١) . يعنى مثل قول المصاب : يا سنداه يا ناصرته ، يا عضداه . وقال : « إن النائحة إذا لم تتب قبل موتها فإنها تلبس يوم القيامة درعا من حرب ، وسربالا من قطران » . وقال : « لعن الله النائحة والمستمعة إليها » .

وقد قال في تنزيله : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات

(١) قال أبو تراب : أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود .

(١) قال أبو تراب : أخرجه الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه عن سعد وله مخرج أخر عند الطهاني والحاكم وعبد الرزاق .

يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنین ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفرهن الله إن الله غفور رحيم ﴿١﴾ . وقد فسر النبي ﷺ قوله : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ بأنها النياحة . وتبرأ النبي ﷺ من الحالقة والصالقة . [والخالقة] : التي تحلق شعرها عند المصيبة ، والصالقة : التي ترفع صوتها عند المصيبة . وقال جرير بن عبد الله : كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعتهم الطعام للناس من النياحة ، وإنما السنة : أن يصنع لأهل الميت طعام ، لأن مصيبتهم تشغلهم ، كما قال النبي ﷺ لما نعى جعفر بن أبي طالب لما استشهد بمؤتة فقال : « اصنعوا لآل جعفر طعاماً فقد جاءهم ما يشغلهم » (١) .

وهكذا ما يفعل قوم آخرون يوم عاشوراء من الاكتحال والاختضاب أو المصافحة والاغتسال ، فهو بدعة أيضاً لا أصل لها ، ولم يذكرها أحد من الأئمة المشهورين ، وإنما روى فيها حديث : « من اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض تلك السنة ، ومن اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام » (٢) . ونحو ذلك ، ولكن الذي ثبت عن النبي ﷺ : أنه صام يوم عاشوراء ، وأمر بصيامه

والقال : « صومه يكفر سنة » (١) وقرر النبي ﷺ أن الله أنجى فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، وروى أنه كان فيه حوادث الأمم .. فمن كرامة الحسين أن الله جعل استشهاديه فيه . وقد يجمع الله في الوقت شخصاً أو نوعاً من النعمة التي لوجب شكرها ، أو المحنة التي توجب صبراً ، كما أن سابع عشر شهر رمضان فيه كانت وقعة بدر ، وفيه كان مقتل علي .. وأبلغ من ذلك : أن يوم الاثنين في ربيع الأول مولد النبي ﷺ ، وفيه هجرته ، وفيه وفاته .

والعبد المؤمن يتلى بالحسنات التي تسره ، والسيئات التي تسوءه في الوقت الواحد ، ليكون صباراً ، شكوراً ، فكيف إذا وقع مثل ذلك في وقتين متعددين من نوع واحد .

ويستحب صوم التاسع والعاشر ، ولا يستحب الكحل ، والذين يصنعونه من الكحل من أهل الدين لا يقصدون به مناصبة أهل البيت ، وإن كانوا مخطئين في فعلهم ، ومن قصد منهم أهل البيت بذلك أو غيره ، أو فرح ، أو استشفى بمصائبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . فقد قال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم من أجلى » (٢) . لما شكوا

(١) قال أبو تراب : أخرجه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي قتادة .

(٢) قال أبو تراب : وفي المعنى عن عبد الله بن جعفر عند الحاكم وعن العباس عند أحمد وابن ماجه والطبراني والرويانى وابن عساكر .

(١) قال أبو تراب : رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله ابن جعفر .

(٢) قال أبو تراب : أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس وليس بثابت .

إليه العباس أن بعض قريش يجفون بنى هاشم وقال : « إن الله اصطفى قريشا من بنى كنانة ، واصطفى بنى هاشم من قريش ، واصطفاني من بنى هاشم »^(١) . وروى عنه انه قال : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا أهل بيتي لحبي »^(٢) .

وهذا باب واسع يطول القول فيه .

وكان سبب هذه المواصلات أن بعض الإخوان قدم بورقة فيها ذكر النبي ﷺ ، وذكر سادة أهل البيت ، وقد أجرى فيها ذكر النذور لمشهد المنتظر ، فخطب من فضائل أهل البيت وحقوقهم ، بما سر قلبه ، وشرح صدره ، وكان ما ذكر بعض الواجب ، فإن الكلام في هذا طويل ، ولم يحتمل هذا الحامل أكثر من ذلك . وخطب فيما يتعلق بالأنساب والنذور بما يجب في دين الله ، فسأل المكاتب بذلك الى من يذهب إليه من الإخوان ، فإن النبي ﷺ قال : « الدين النصيحة » * قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

(١) قال أبو تراب : أخرجه مسلم والترمذي عن واثلة .

(٢) قال أبو تراب : أخرجه الترمذي والحاكم عن ابن عباس .

(*) قال أبو تراب : روى هذا اللفظ ثوبان وابن عمر وابن عباس وأبو هريرة وأخرجه أحمد ، والبخاري في التاريخ ومسلم والدارمي وأبو عوانة وأبو داود والبخاري والنسائي والترمذي وأبو نعيم والضياء .

أما ورقة الأنساب والتواريخ ففيها غلط في مواضع متعددة ، مثل ذكره أن النبي ﷺ توفي في صفر ، وأنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عمرو بن العلاء بن هاشم ، وأن جعفر الصادق توفي في خلافة الرشيد ، وغير ذلك .

فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن النبي ﷺ توفي في شهر ربيع الأول ، شهر مولده وشهر هجرته ، وأنه توفي يوم الاثنين وفيه ولد ، وفيه أنزل عليه . وجده هاشم بن عبد مناف ، وإنما كان هاشم يسمى عمرا ، ويقال له : عمرو العلاء ، كما قال الشاعر :

عمر العلاء هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف
وأن جعفرا أبا عبد الله توفي في سنة ثمان وأربعين في إمارة أبي جعفر المنصور ، وأما المنتظر فقد ذكر طائفة من أهل العلم بأنساب أهل البيت : أن الحسن بن علي العسكري لما توفي بعسكر سامراء لم يعقب ولم ينسل ، وقال من أثبتته : إن أباه لما توفي سنة ستين ومائتين كان عمره سنتين أو أكثر من ذلك بقليل ، وأنه غاب من ذلك الوقت وأنه من ذلك الوقت حجة الله على أهل الأرض ، لا يتم الإيمان إلا به ، وأنه هو المهدي الذي أخبر به النبي ﷺ ، وأنه يعلم كل ما يفتقر إليه الدين .

وهذا موضع ينبغي للمسلم أن يتثبت فيه ، ويستهدي الله

ويستعينه ، لأن الله قد حرم القول بغير علم ، وذكر أن ذلك من خطوات الشيطان وحرم القول المخالف للحق ، ونصوص التنزيل شاهدة بذلك ، ونهى عن اتباع الهوى .

فأما المهدي الذي بشر به النبي ﷺ فقد رواه أهل العلم العالمون بأخبار النبي ﷺ ، الحافظون لها ، الباحثون عنها وعن روايتها ، مثل أبي داود ، والترمذي ، وغيرهما ، ورواه الإمام أحمد في مسنده .

فعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلا من أهل بيتي ، يوطئ اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبي ، يملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجورا »^(١) .

وروى هذا المعنى من حديث أم سلمة وغيرها .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : « المهدي من ولد ابني هذا » . وأشار إلى الحسن .

وقال ﷺ : « يكون في آخر الزمان خليفة يحشو المال حثوا »^(٢) . وهو حديث صحيح .

(١) قال أبو تراب : أخرجه أبو داود ومثله عنده وعند أحمد عن علي وانظر في أحاديث هذا الباب ، تحفة الأحوذى وله شواهد كثيرة وأنه من ولد فاطمة .

(٢) قال أبو تراب : رواه أحمد ومسلم عن جابر وأبي سعيد .

فقد أخبر النبي ﷺ أن اسمه محمد بن عبد الله ، ليس محمد ابن الحسن . ومن قال : إن أبا جده الحسين ، وإن كنيته الحسين أبو عبد الله فقد جعل الكنية اسمه ، فما يخفى على من يخشى الله أن هذا تحريف الكلم عن مواضعه ، وأنه من جنس تأويلات القرامطة وقول أمير المؤمنين صريح في أنه حسني لا حسيني ، لأن الحسن والحسين مشبهان من بعض الوجوه بإسماعيل وإسحاق ، وإن لم يكونا نبين ، ولهذا كان النبي ﷺ يقول لهما : « أعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » . ويقول : « إن إبراهيم كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق » وكان إسماعيل هو الأكبر والأحلم ، ولهذا قال النبي ﷺ وهو يخطب على المنبر والحسن معه على المنبر : « ان ابني هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين »^(١) .

فكما أن غالب الأنبياء كانوا من ذرية إسحاق ، فهكذا كان غالب السادة الأئمة من ذرية الحسين ، وكما أن خاتم الأنبياء الذي طبق أمره مشارق الأرض ومغاربها كان من ذرية إسماعيل ، فكذلك الخليفة الراشد المهدي الذي هو آخر الخلفاء يكون من ذرية الحسن .

(١) قال أبو تراب : أخرجه الإمام أحمد والبخاري عن أبي بكر .

وأيضاً فإن من كان ابن ستين كان في حكم الكتاب والسنة مستحقاً أن يحجر عليه في بدنه ، ويحجر عليه في ماله ، حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد فإنه يتيم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ . فمن لم تفوض الشريعة إليه أمر نفسه كيف تفوض إليه أمر الأمة ؟ وكيف يجوز أن يكون إماماً على الأمة من لا يرى ولا يسمع له خبر ؟ مع أن الله لا يكلف العباد بطاعة من لا يقدر على الوصول إليه ، وله أربعمئة وأربعون سنة ينتظره من ينتظره وهو لم يخرج ، إذ لا وجود له .

وكيف لم يظهر لخواصه وأصحابه المأمونين عليه كما ظهر آبؤه ، وما الموجب لهذا الاختفاء الشديد دون غيره من الآباء ؟ وما زال العقلاء قديماً وحديثاً يضحكون بمن يثبت هذا ، ويعلق دينه به ، حتى جعل الزنادقة هذا وأمثاله طريقاً إلى القدح في الملة ، وتسفيه عقول أهل الدين إذا كانوا يعتقدون مثل هذا .

لهذا قد اطلع أهل المعرفة على خلق كثير منافقين زنادقة يتسترون بإظهار هذا وأمثاله ، ليستميلوا قلوب وعقول الضعفاء وأهل الأهواء ، ودخل بسبب ذلك من الفساد ما الله به عليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والله يصلح أمر هذه الأمة ويهديهم ويرشدهم .

وكذلك ما يتعلق بالندور والمساجد والمشاهد ، فإن الله في كتابه وسنة نبيه التي نقلها السابقون من أهل بيته وغيرهم قد أمر بعمارة المساجد ، وإقامة الصلوات فيها بحسب الإمكان ، ونهى عن بناء المساجد على القبور ، ولعن من يفعل ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ .

وقال : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ .

وقال : ﴿ ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ .

وقال النبي ﷺ : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » (١) .

(١) قال أبو تراب : أخرجه ابن ماجه عن عليّ وفي المعنى عن جابر وابن عباس وعمر وعثمان عند الإمام أحمد وغيره .

وقال : « بشر المشائين في ظلم الليل إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة »^(١) .

وقال : « من غدا إلى المسجد أو راح ، أعد الله له نزلا كلما غدا أو راح »^(٢) .

وقال : « صلاة الرجل في المسجد تفضل على صلاته في بيته وسوقه بخمس وعشرين درجة » .

وقال : « من تطهر في بيته فأحسن الطهور ، وخرج إلى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة ، كانت خطواته إحداها ترفع درجة ، والأخرى تضع خطيئة » .

وقال : « صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده ، وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل ، وما كان أكثر كان أحب إلى الله »^(٣) .

وقال : « سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عند

وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة »^(١) .

وقال : « يصلون لكم ، فإن أحسنوا فلكم ، وإن أساءوا فلکم وعليهم » .

وهذا باب واسع جدا .

وقال أيضاً : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . يحذر ما فعلوا . قالوا ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجدا وهذا قاله في مرضه .

وقال قبل موته بخمس : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » .

ولما ذكر كنيسة الحبشة قال : « أولئك إذا مات الرجل فيهم بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار المخلوق عند الله يوم القيامة » .

وكل هذه الأحاديث في الصحاح المشاهير .

وقال أيضاً : « لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين عليه

(١) قال أبو تراب : أخرجه أبو داود الترمذى عن بريدة وابن ماجه والحاكم عن أنس وسهل بن سعد .

(٢) قال أبو تراب : هذا حديث متفق عليه وأخرجه أيضا أحمد عن أنس بن مالك .

(٣) قال أبو تراب : أخرجه الطبراني والبيهقي عن قباث بن أشيم ، وهو في تاريخ البخارى ، وابن سعد والبزار والديلمى .

(١) قال أبو تراب : أخرجه ابن ماجه والبيهقي عن ابن مسعود .

المساجد والسرَج . رواه الترمذى وغيره وقال : حديث حسن .

فإذا كان النَبى ﷺ قد لعن الذين يتخذون على القبور المساجد ، ويسرجون عليها الضوء ، فكيف يستحل مسلم أن يجعل هذا طاعة وقربة !! .

وفي صحيح مسلم عن أمير المؤمنين علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال : « بعثنى رسول الله ﷺ فأمرنى ألا أدع قبراً مشرفاً إلا سويته ، ولا تمثالاً إلا طمسته » .

وثبت عن النَبى ﷺ أنه قال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » .

وقال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، وصلوا على حيثما كنتم ، فإن صلاتكم تبلغنى » .

فنهى النَبى ﷺ عن الاجتماع عند قبره ، وأمر بالصلاة عليه في جميع المواضع ، فإن الصلاة عليه تصل إليه من جميع المواضع ، وهذه الأحاديث رواها أهل بيته ، مثل علي بن الحسين عن أبيه عن جده علي ، ومثل عبد الله بن الحسن بن علي بن أبى طالب ، فكانوا هم وجيرانهم من علماء أهل المدينة ينهون عن البدع التى عند قبره أو قبر غيره ، امتثالاً لأمره ، ومتابعة لشريعته ، فإن من مبدأ عبادة الأوثان : العكوف على الأنبياء

والصالحين ، والعكوف على تماثيلهم ، وإن كانت وقعت بغير ذلك .

وقد ذكر الله في كتابه عن المشركين أنهم قالوا : ﴿ لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً وقد أضلوا كثيراً ﴾ . وقد روى طائفة من علماء السلف أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، وكذلك قال ابن عباس في قوله : ﴿ أفرايتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى ﴾ . قال ابن عباس : كان اللات رجلاً يلت السوق للحجاج ، فلما مات عكفوا على قبره ، ولهذا قال النَبى ﷺ : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » . ونهى أن يصلى عند قبره .

ولهذا لما بنى المسلمون حجرته حرقوا مؤخرها ، وسنموه ثلثاً يصلى إليه [أحد] فإنه ﷺ قال : « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها » رواه مسلم .

وكان ﷺ إذا خرج إلى أهل البقيع يسلم عليهم ، ويدعو لهم ، وعلم أصحابه أن يقولوا إذا زاروا القبور : « سلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم آجرهم ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » .

هذا مع أن في البقيع إبراهيم وبناته أم كلثوم ورقية وسيدة نساء العالمين فاطمة ، وكانت إحداهن دفنت فيه قديما قريبا من غزوة بدر ، ومع ذلك فلم يحدث على أولئك السادة شيئا من هذه المنكرات ، بل المشروع التحية لهم ، والدعاء بالاستغفار وغيره . وكذلك في حقه ، أمر بالصلاة والسلام عليه من القرب والبعد ، وقال : « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فإن صلاتكم معروضة على . قالوا : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت : يعني : بليت . قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

وقال : « ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام »^(١) .

وكل هذه الأحاديث ثابتة عند أهل المعرفة بحديث النبي ﷺ فالدعاء والاستغفار يصل إلى الميت عند قبره وغير قبره ، وهو الذي ينبغي المسلم أن يعامل به موقى المسلمين من الدعاء لهم بأنواع الدعاء ، كما أن في حياته يدعو لهم ، وهذا رسول ﷺ قد أمرنا أن نصلي عليه ونسلم تسليما في حياته ومماته ، وعلى آل

(١) قال أبو تراب : رواه تمام والخطيب وابن عساكر وابن النجار عن أبي هريرة ، وبمعناه ، عنه أبو الشيخ والديلمي والبيهقي في الشعب وابن أبي الدنيا . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى الكبرى : صححه ابن عبد البر .

بيته ، وأمرنا أن ندعو للمؤمنين والمؤمنات في محياهم ومماتهم ، عند قبورهم وغير قبورهم ، ونهانا الله أن نجعل لله أندادا ، أو نشبه بيت المخلوق الذي هو قبره ببيت الله الذي هو الكعبة البيت الحرام فإن الله أمرنا أن نحج ونصلي إليه ، ونطوف به ، وشرع لنا أن نستلم أركانه ، ونقبل الحجر الأسود الذي جعله الله بمنزلة يمينه . قال ابن عباس : « الحجر الأسود يمين الله في الأرض ، فمن استلمه وصافحه فكأنما صافح الله وقبل يمينه » . وشرع كسوة الكعبة ، وتعليق الاستار عليها ، وكان يتعلق من يتعلق بأستار الكعبة كالتعلق بأذيال المستجار به ، فلا يجوز أن تضاهي بيوت المخلوقين بيت الخالق .

ولهذا كان السلف يهون من زار قبر النبي ﷺ أن يقبله ، بل يسلم عليه بأي هو وأمي ﷺ ، ويصلي عليه كما كان السلف يفعلون ، فإذا كان السلف أعرف بدين الله وسنة نبيه وحقوقه ، وحقوق السابقين والتابعين من أهل البيت وغيرهم ، ولم يفعلوا شيئا من هذه البدع التي تشبه الشرك وعبادة الأوثان ، لأن الله ورسوله نهاهم عن ذلك ، بل يعبدون الله وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين كما أمر الله به ورسوله ، ويعمرون بيوت الله بقلوبهم وجوارحهم من الصلاة والقراءة ، والذكر والدعاء وغير ذلك .

فكيف يحل للمسلم أن يعدل عن كتاب الله ، وشرعية

رسوله ، وسبيل السابقين من المؤمنين ، إلى ما أحدثه ناس آخرون ، إما عمدا وإما خطأ .

فخطوب حامل هذا الكتاب بأن جميع هذه البدع التي على قبور الأنبياء والسادة من آل البيت والمشايخ المخالفة للكتاب والسنة ، ليس للمسلم أن يعين عليها ، هذا إذا كانت القبور صحيحة ، فكيف وأكثر هذه القبور مطعون فيها ؟

وإذا كانت هذه النذور للقبور معصية قد نهى الله عنها ورسوله والمؤمنون السابقون ، فقد قال النبي ﷺ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » (١) .

وقال ﷺ : « كفارة النذر كفارة يمين » (٢) وهذا الحديث في الصحاح .

فإذا كان النذر طاعة لله ورسوله ، مثل أن ينذر صلاة أو صوما أو حجاً أو صدقة أو نحو ذلك ، فهذا عليه أن يفي به ، وإذا كان النذر معصية كفر أو غير كفر ، مثل أن ينذر للأصنام كالنذور التي بالهند ، ومثلما كان المشركون ينذرون لآلهتهم ، مثل اللات التي كانت بالطائف ، والعزى التي كانت بعرفة قريباً

(١) قال أبو تراب : أخرجه الإمام أحمد ، والبخاري عن عائشة .

(٢) قال أبو تراب : أخرجه أحمد ومسلم ، عن عقبة بن عامر .

من مكة ، ومناة الثالثة الأخرى التي كانت لأهل المدينة ، وهذه المدائن الثلاث هي مدائن أرض الحجاز ، كانوا ينذرون لها النذور ، ويتعبدون لها ، ويتوسلون بها إلى الله في حوائجهم ، كما أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ . ومثلما ينذر الجاهل من المسلمين لعين ماء ، أو بئر من الآبار ، أو قناة ماء أو مغارة ، أو حجر ، أو شجرة من الأشجار ، أو قبر من القبور ، وإن كان قبر نبي أو رجل صالح ، أو ينذرون زيتاً أو شمعاً أو كسوة أو ذهباً أو فضة لبعض هذه الأشياء ، فإن هذا كله نذر معصية لا يوفي به .

لكن من العلماء من يقول : على صاحبه كفارة يمين . لما روى أهل السنن عن النبي ﷺ : « لا نذر في معصية ، وكفارته كفارة يمين » . وفي الصحيح عنه أنه قال : « كفارة النذر كفارة يمين » .

وإذا صرف من ذلك المنذور شيء في قرابة من القربات المشروعة كان حسناً ، مثل أن يصرف الدهن إلى تنوير بيوت الله ، ويصرف المال والكسوة إلى من يستحقه من المسلمين من آل بيت رسول الله ﷺ ، وسائر المؤمنين ، وفي سائر المصالح التي أمر الله بها ورسوله .

وإذا اعتقد بعض الجاهل أن بعض هذه النذور المحرمة قد

قضت حاجته بجلب المنفعة من المال والعافية ونحو ذلك ، أو بدفع
المضرة من البدن ونحوه ، فقد غلط في ذلك فقد صح عن النبي
ﷺ أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير ، ولكنه
يستخرج به من البخيل » . فعند النذر مكروها ، وإن كان الوفاء
به واجبا إن كان النذر طاعة لله ورسوله ﷺ .

وقد أخبر النبي ﷺ أن النذر لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج
به من البخيل ، وهذا المعنى قد ثبت عن النبي ﷺ من غير
وجه ، فيما كان قربة محضة لله ، فكيف ينذر فيه شرك ، فإنه
لا يجوز نذره ولا الوفاء به .

وهذا وإن كان قد غمر الإسلام ، وكثر العكوف على
القبور التي هي للصالحين من أهل البيت وغيرهم ، فعلى الناس أن
يطيعوا الله ورسوله ، ويتبعوا دين الله الذي بعث به نبيه ﷺ ،
ولا يشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله ، فإن الله إنما أرسل
الرسل ، وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله ، وليعبدوا الله وحده
لا شريك له .

كما قال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا
أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا
والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا

الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي
إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله
واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه
الضلالة ﴾ .

وقال تعالى في حق الذين كانوا يدعون الملائكة والنبين ﴿ قل
ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم
ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب
ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ .

وقال : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبين أربابا
أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ .

ورد على من اتخذ شفعا من دونه فقال : ﴿ أم اتخذوا من
دون الله شفعا قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون . قل لله
الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون . وإذا ذكر
الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر
الذين من دونه إذا هم يستبشرون . قل اللهم فاطر السموات
والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه
يختلفون ﴾ .

وقال : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله

والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ .

قال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .

وكتب الله من أولها إلى آخرها تأمر بإخلاص الدين لله ، لا سيما الكتاب الذي بعث به محمد ﷺ ، أو الشريعة التي جاء بها ، فإنها كملت الدين ، قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ .

وقال : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ .

وقد جعل قوام الأمر بالإخلاص لله ، والعدل في الأمور كلها ، كما قال تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تهودون فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ .

ولقد خلاص النبي ﷺ التوحيد من دقيق الشرك وجليله ،

حتى قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » . رواه الترمذي وصححه . وقال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » . وهذا مشهور في الصحاح . وقال : « لا يقولن أحدكم ماشاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ماشاء الله ، ثم شاء محمد » . وقال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : « اجعلتنى لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحده » . وروى عنه أنه قال : « الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل »^(١) . وروى عنه أن الرياء شرك .

وقال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ .

وعلم بعض أصحابه أن يقول : « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » .

ومن هذا الباب الذين يسألون الصدقة أو يعطونها لغير الله ، مثل من يقول : لأجل فلان ، إما بعض الصحابة ، أو بعض

(١) قال أبو تراب : أخرجه الحكيم في النوادر ، عن ابن عباس وأبي بكر ، وأخرجه أحمد والحاكم وأبو نعيم ، عن عائشة ، وأخرجه أحمد عن أبي موسى ، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ، وأبو يعلى وابن السني عن أبي بكر وهو حديث صحيح ، (أنظر الأحاديث الضعيفة للألباني ٣٧٥٥) .

أهل البيت ، حتى يتخذ السؤال بذلك ذريعة إلى أكل أموال الناس بالباطل ، ويصير قوم ممن ينتسب إلى محبة آل البيت يعطى الناس ، وآخرون ممن ينتسب إلى السنة يعطى الآخرين ، والشيطان قد استحوذ على الجميع ، فإن الصدقة وسائر العبادات لا يشرع أن تفعل إلا لله ، كما قال تعالى :

﴿ وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ .

وقال : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ .

وقال : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ .

وقال تعالى كلمة جامعة : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة . وما أمروا إلا ليعبدوا الله

مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ .

وعبادته تجمع الصلاة وما يدخل فيها من الدعاء والذكر ، وتجمع الصدقة والزكاة بجميع الأنواع ، من الطعام واللباس والنقد وغير ذلك .

والله يجعلنا وسائر إخواننا المؤمنين مخلصين له الدين ، نعبد ولا نشرك به شيئاً ، معتصمين بحبله ، متمسكين بكتابه ، متعلمين لما أنزل من الكتاب والحكمة ، ويصرف عنا شياطين الجن والإنس ، ويعيذنا أن تفرق بنا عن سبيله ، ويهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً